الفصل الخامس

الرّاحِلُ والمُقيمُ

[أتركُهم لدنياهم وأختار الله ،
ورسوله]

« علي »

ضاعت الفُرص من نفسها ، وما ضاعت من عَلِيّ . .

ضاعت من الدولة المسلمة الراشدة التى كان الإمام يريد أن يعيدها إلى جادَّتها ، ويمضى بها على صراطها الأول القويم .

ضاعت من مقادير الإسلام التى كادت تصبح على موعد مع خليفة آخر من طراز « عمر » فى صرامته ، وعدله . . فى استقامته وورعه . . فى ترفعه ، وتواضُعه ، وزهده . .

والخليفة المتقشف الذى تُجْبَىَ إليه الأموال حلالاً طيبة من أقطار الأرض ، ثم هو يلبس قميصاً بثلاثة دراهم ! !

الخطيبُ الذى تهتز الدنيا لكلماته ، وهى تخرج من وراء شفتيه ناضرة قاهرة ! !

الفقيهُ العالم الذى تتفجر الحكمة من نفسه ، وعقله . ويجرى الحق على لسانه وقلبه ! !

العابدُ ، الوَرِعُ ، التقىُّ ، الذى تفوَّق على إغراء الدنيا ، وأطماع البشر ! !

تلميذُ « الرسولِ » الأوّلُ ، والأمْثل ! !

ربيب الوحى ، وسابق المسلمين ! !

كل هذا فى طريقه الآن إلى الرحيل . . ليحتلَّ مكانه مُلك عَضُوض . يقوم إيوانه وعرْشه فى الشام ، حيث ترتفع رايات الزّهو والأنانية . .

وحيث تدق طبول المجد الفارغ والطموح المتألّى . !

° ° °

الآن تقترب الأمور من نهاياتها . .

ويقف « البطل » بين فتنتين عارمتين . .

أولاهما : فى الشام تصيح : (يا لثارَات عثمان) ! !

وثانيتهما : فى العراق تصيح : (لا حكْمَ إلا لله) ! !

ولئن كانت الأولى ، أعتى وأوسع ، فإن الثانية أمَضُّ وأوجع . ذلك أن ذويها ومشعِليها الذين كانوا بالأمس لا غير ، أتباعه وجنده . . وهم الذين أصروا أو أصرَّ أكثرهم على قبول التحكيم حين كان يحذرهم منه ويدعوهم إلى رفضه .

وهم الذين أصرُّوا ، أو أصرَّ أكثرهم على اختيار « أبى موسى الأشعرى » حين كان هو يدعوهم فى إلحاح إلى اختيار « عبد الله بن عباس » لأنه القادر على فَلِّ دهاء « عمرو » ودَحض مناوراته . .

هم أولئك بالأمس . . هؤلاء الذين يحملون السلاح اليوم ليحكموا به وفق هواهم ، وهم الذين ينشرون الذعر والرعب والفزع فى أفئدة الآمنين ، وهم – أخيراً – الذين يضطرونه ليحمل السلاح فى وجوههم . . !

لقد حاول أن يصابرهم ، ويحملهم بمنطقه على الرُّجعَى . ولكن

الفتنة والضلال كانا قد أحكما الخناق على عقولهم وألبابهم . .

ولقد فقد الإمام كل أمل فى هدايتهم حين بلغه نبأ مقتل عبد الله ابن خبّاب وزوجه ، والطريقة التى قتلوهما بها . .

إن « عبد الله » ابن صحابى جليل . . كان إسلامه ، وكانت حياته روعة وبهاء . . هو — خبّاب بن الأرتّ [١]

ولقد لقيه « الخوارج » هو وزوجته فى طريق سفرهما ، فاعتقلوهما وسألوا « عبد الله » أن يحدثهم ببعض ما سمعه من أبيه من أحاديث رسول الله فقال لهم :

[سمعت أبى يقول : سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ستكون فتنة ، القاعد فيها خير من القائم ، والقائم خير من الماشى ، والماشى خير من السَّاعى] .

وسألوه عن « الإمام على » فقال : فيه خيراً ، فاقتادوه وزوجته . والآن ، لننظر هذه المفارقة المضحكة والمفجعة . .

فبينما هم ماضون بهما ، سقطت ثمرة من نخلة ، فتلقاها أحد الخوارج بفمه . وقبل أن يمضغها صاح به زميل له : كيف تستحلها بغير إذن من صاحب النخلة ، وقبل أن تدفع ثمنها ؟ فألقاها من فمه وراح يندم ويستغفر . . !

وبعد خطوات فى سيرهما — تقدموا من « عبد الله بن خبّاب » فذبحوه . !

---

(١) راجع « خبّاب بن الأرت » فى « رجال حول الرسول » .

ثم التفتوا بوحشيتهم صوب زوجته ، فصاحت من الفزع : (إنى حُبْلَى ، فاتقوا الله فىَّ) .

ولكنهم ذبحوها هى الأخرى ، وبقروا بطنها عن جنينها . . ؟

أولئك من الذين كانوا يقاتلون مع الإمام بالأمس . . قد علم الله ما فى قلوبهم ، فطهَّره من صُحبتهم تطهيراً . . !

لم يكد مقتل « عبد الله بن خبَّاب » يبلغ مسامع الإمام حتى تراءى أمامه مصير الأبرياء لو تُرك هؤلاء الهائمون المتوحشون يعيثون فى أرض الناس فساداً . فلوَى زمام جيشه عن الشام إلى النهروان ، حيث لقى الخوارج فى معركة فاصلة أباد فيها جَمعهم ، وشتّت شملهم ، وطوَّح رءوس قادتهم وزعمائهم .

* * *

أفما آن له أن يستريح . . ؟

ألا ينفض يديه من ذلك الظلام ، ويخرج من تلك المتاهات إلى حيث يعبد الله بقلبه السليم ، وينفع المسلمين بعلمه العميم ؟

ربمَا كان ذلك بعض أمانيه . . ولكنها مسئولياته وتبعاته . . ؟ مَنْ يحملها سواه . ! إنها فوق كاهله . . لن يضعها عنه سوى المـــوت . . فأين هو ! ومتى يجىء ؟ !

إنه ليَحُس أن قد آنَ أوانه . .

فإن أهل الكوفة الذين دعاهم إلى السير معه صَوْب الشام للقاء معاوية ، فقد تقاَعسوا وراحوا يتسلَّلون الواحد بعد الآخر من معسكرهم

بالنُّخَيْلة . . حتى تلفَّت الإمام ذات صباح فلم يجد حوله منهم سوى ألف لا يزيدون ! !

انتهى دوره إذن . . ففيم البقاء ؟

لقد كانت حياته فى دورها الأخير هذا وقفاً على قضية كبرى . . أن يُعيد للإسلام حقيقته ، وللمسلمين وَحدتهم ، وللدولة الإسلامية تماسكها ، وشِرْعتها ، واستقامتها . .

أجَلْ . . كانت القضية التى نذرَ لها حياته هى : أن يَرُدَّ الإسلام إلى حقيقته . . وأن يردّ المسلمين إلى الإسلام . . !

ولم يترك سِلماً ، ولا حَرباً ، يبلُغان به غايته النبيلة هذه إلا توسَّل بهما فى عدالة ، وشرف .

ولقد كانت قضيتُه واضحة المحَيَّا ، مُشرقة الجبين . . ناصعة الحجّة ، طاهرة الضَّمير .

وإن عظمتَها لتتجلَّى عندما جاء ذلك اليوم الذى وقف فيه « معاوية » يأخذ البيعة بُحدِّ السيف لابنه « يزيد » !

يَزيد . . ؟ ؟

نعوذ بكلمات الله التامَّات من شرِّ ماخَلق . . ! !

إنه لو كان يأخذها لواحد من صُلحاء بنى أُمية وفضُلائهم ، ما جاز له حمل المسلمين عليها بالرهبة والقوة . فكيف وهى لـ « يزيد » يَزيد . وكفَى ؟ !

لقد كشف هذا العمل من معاوية عن أحد وجوه القضية الجليلة التى كان الإمام يقاتل دونها .

هذا الوجه المتمثِّل فى ألا تصير خلافة المسلمين إلى طُلقاء بنى أمية أبداً . . وأن تظلَّ فى الصالحين الأوَّلين من المهاجرين والأنصار .

أجَلْ . . يومئذ تكشّف هذا الوجْه من القضية الكبرى التى نذر البطل لها حياته ، فألقى ضوءه على وجوه القضية كلها . .

ولم يبق من المسلمين أحد ، إلا بحّ صوته ترحُّماً على الإمام « على » . .

ووقف واحد من كبار الصحابة يومها يقول :

« ما أجدنى آسى على شىء فاتنى فى
حياتى ، إلا على أنى لم أقاتل مع
« عَلِىّ » الفئة الباغية » .

أجل . . قال ذلك والدموع تبلل لحيته ، الصحابى الجليل ، الطيب ابنُ الطيب « عبد الله بن عمر » ! !

* * *

وأحسَّ المسلمون فى كل مكان . . وفى العراق خاصة أنهم ضالعون فى الإثم ، شركاء فى الوزر ، يوم تخلَّوا عن « البطل » وتركوه وحده فى الفضاء المُوحِش بين الوحوش والذئاب ! !

وراحوا يبكون ، ويُولْوِلُون . .

لقد أحسُّوا فجأة بالفراغ القاتل الذى خلَّفه لهم غياب أبيهم الحنون ، الطيب ، العادل ، الرحيم .

وراحوا يترحَّمون عليه من كل أفئدتهم الصادعة الضارعة . .

أقول : يترحمون .

أجَلْ . فقد نسيت أن أقول لكم : إنه مات . . قُتِل غيلة . . استشهد

البطل والخليفة والإمام . . وهو يقترب من باب مسجد الكوفة ، وقيل : بل وهو يصلى ، أو يتهيأ للصلاة – بعد أن عبر شوارعها يوقظ أهلها لصلاة الفجر . . ويناديهم بصوته الجليل :

[الصلاة ، أيها الناس ، الصلاة ،
يرحمكُم الله]

اقترب منه فى لجّة الظلام واحد من الخوارج اسمه – عبد الرحمن ابن مُلْجم – كان قد ائتمر مع اثنين آخرين ليتخلصوا من الامِام بالعراق ، ومن « معاوية » بالشام . ومن « عمرو بن العاص » بمصر .

كان « الإمام » بلاَ حَرس . .

فكان اغتياله عملاً من أيسر الأعمال .

لم تكن الجريمة تتطلب أى جلَد ، أوقوة ، أو بطولة . .

كانت تتطلب – لا غير – ضميراً ميِّتاً ، وتفكيراً ضالاً ، وقلباً أعمى ، وإرادة ممسوخة . . ! !

فلما وجدت هذه جميعاً ، فى صورة آدمى ، وسُلِّحت بسيف مسموم . وقيل لها : اطعنى هذا الهُدى وهذا الجلال . . تمَّ كل شىء فى لحظات ! !

وحققت الأقدار للبطل أمنيته الأخيرة .

فقبل استشهاده بأيام ، نادى أهل الكوفة من كتاب كتبه ، ووقف أحد أصحابه يتلوه عليهم بعد صلاة الجمعة :

[. . . أما والله لَوَددْتُ أن الله أخرجنى
من بين أظهُركم ، وقبضنى إلى رحمته
من بينكم . .

« ولوددْتُ أنى لم أرَكُم ولم أعرفْكم . .
« فقد والله ملأتُم صدرى غيظاً ،
وجرَّعْتُمونى الأمـــرَّين أنفاســاً ،
وأفسدتم علىَّ رأيى بالعصيان والخذلان..
حتى قالت قريش : إن ابن أبى طالب
رجل شجاع ، ولكنْ لا علمَ له
بالحرب ، لله أبوهم ! ! هل كان
فيهم رجل أشدَّ لها مِراساً . وأطولَ
مقاساةً منِّى ؟ ؟
« لقد نهضْتُ فيها وما بلغت العشرين
« وها أنذا اليوم قد عَدوْتُ الستِّين . .
« ولكن ، لا رَأىَ لمن لا يُطاع] . . ! !

أجَلْ : يا أمير المؤمنين ، لا رأى لمن لا يطاع . .

ولقد سارع القدر إلى رجائك ، فأخرجك الله من بين أظهرهم ، وقبضك إلى رحمته تقياً . . نقياً . . باراً .

ولقد حملك إلى الرفيق الأعلى ، زورقُك الآمِن الوديع الذى طالما قهرت به أمواج الفتن حتى اجتزْتها جميعاً فى سلام . .

زوْرَقُك الذى لذْت به طوال حياتك ، وكنت أشدَّ به التياذاً وأوثق رحماً ، كلما ذكرت الحوار الذى دار بين الرسول وبينك ذات يوم بعيد .

يوم سألك – يا أمير المؤمنين – قائلاً :

[يا على . .

« كيف أنت إذا زهد الناس فى
الآخرة ، ورغبوا فى الدنيا ، وأكلوا
التُّراثَ أكلاً لمًّا . . وأحَبُّوا المال
حُبًّا جمًّا . . واتخذوا دين الله دَغلاً
ومالوا دُوَلا . .] ؟

فأجبته – يا أمير المؤمنين – قائلاً :

[إذن . أتركهم لدنياهم ، وأذَرُهم
وما اختاروا . . وأختـــــارُ الله ،
ورسوله ، والدار الآخرة . . وأصبر
على ذلك حتى ألحق بكم] . . !

لقد اخترتَ – يا أبا الحسن – فأحسنت الاختيار . .

واصْطَبَرْتَ – يا أبا الحُسَيْنْ – فأحسنت الاصطبار . .

ولحقتَ بمن تُحب من المرسلين ، والشهداء ، والأبرار ! !

* * *

لقى الإمام ربه – أخيراً – مصاباً بضربة سيف مسموم . . كما لقيه من قبل عمر الفاروق ، مصاباً بضربة خنجر محموم ! !

وتأبى عظمة البطل إلا أن يكون آخر مشهد فى حياته جديراً بها أكثر ما تكون الجدارة ، ودالا على حقيقته أصدق ما تكون الدلالة . . !

فإنه لم يكد يتلقى ضربة القدر فى رأسه ، حتى حُمل إلى داره . .

وإذ هو فى لحظات الكارثة هذه ، يأمر حامِليه والحافِّين حوله أن يذهبوا إلى المسجد ؛ ليدركوا صلاة الفجر قبل أن تُؤذِن بفوات . . هذه الصلاة التى كان يتهيأ لها حين حال الأغتيال الأثيم بينه وبين بلوغها أو إتمامها . . وحين يفرغون من صلاتهم ، ويعودون إليه ، كما يعود فى نفس الوقت ، بعض الرجال ممسكين بالقاتل عبد الرحمن بن ملجم — يفتح الإمام عينيه ، فتقعان عليه ، فيهز رأسه فى أسى حين يعرفه ويقول :

— أهو أنت . . ؟ لطالما أحسنْتُ إليك . .

ويُلقى البطل العظيم على وجوه بنيه وأصحابه نظرة ، فيراها تتفجَّر غيظاً ، وتضطرم نِقمة ، ويُحسُّ بَرد الموت يَسرى فى أوصاله ، ويكاد يرى المصير الذى سيحيق بـ « ابن ملجم » . يكاد يرى الانتقام المروِّع الذى سيثأر له به أولاده ، فيتقدم هو فى إصرار ليحمى قاتله من أيَّة مجاوزة أو تخط لحدود القصاص المشروع .

وهكذا ناداهم إليه ، وخرجت الكلمات من فمه مبحوحة متقطعة لترسم فى « العظمة الإنسانية » التى أفاءها القرآن على « على » لوحة باهرة .

قال لبنيه ولأهله :

[أحْسِنُوا نزُلَه . .
وأكرموا مَثْوَاه . .
« فإن أعِشْ ، فأنا أولىَ بدمه قِصاصاً أو عَفواً . .
« وإن أمُتْ ، فألحقُوه بى ، أُخاصمه عند رب العالمين . .

« ولا تقتُلوا بى سواه . .
« إن الله لا يُحبُّ المعتدين] . .

لِندَعْ هذا المشهد بغير تعليق ، فلن نجد كلمات ترتفع إلى مستواه . ! !
ولننتقل إلى مشهد آخر ، أو إلى وجه آخر من مشهد الختام فى حياة الإمام . . ! !

* * *

فى لحظات نهايته ، زاره وفد من أصحابه ، وسألوه أن يستخلف عليهم ابنه « الحسن » من بعده ، فأبى وقال :

[لا آمرُكم ، ولا أنهاكم . .
« أنتم بأموركم أبْصَر] . .

وأرادوا أن يحملوه على ما يريدون ، فوضعوا أناملهم على الوتر الذى يعرفون أنه يهزُّ « ابن أبى طالب » من أعماقه ، وقالوا له :

– وماذا تقول لربك ، إن لقيتَه دون أن تستخلف علينا . . ؟

فأجابهم :

[أقول له : تركتهم دون أن أستخلف عليهم . كما ترك رسولُك المسلمين دون أن يستخلف عليهم] !

ثم دعا بنيه ، وعلى رأسهم « الحسَن » رضى الله عنهم أجمعين . وراح يُملى عليه وصيته :

« [. . أوصيكُم بتقوى الله ربكم ، ولا تَمُوتُنَّ إلاَّ وأنتم مُسْلمون .

* « واعْتصمُوا بحَبْلِ اللهِ جَميعاً ولا تفرَّقوا فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :
إن صلاحَ ذاتِ البَيْن . أفضل من الصلاة والصيام .
* « اللهَ ، اللهَ فى القرآن ، لا يسبقنكم إلى العمل سابق . .
* « اللهَ ، اللهَ فى الفقراء والمساكين ، أشْركوهم فى مَعاشكمُ . .
* « لا تخَافُنَّ فى الله لوْمَةَ لائِم ، يَكْفِكُم من أرادكُم وبغَى عليكم .
* « لا تدَعوا الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، وقولوا للناس حُسناً كما أمركم الله تعالى .
* « عليكم بالتواصُلِ وإياكم والتدابر وتعاوَنوا على البرِّ والتقوى ، ولا تعاوَنوا على الاثم والعدوان . .]

* * *

وقع الاعتداء على حياة الإمام فجر يوم الجمعة الثامن عشر من رمضان عام أربعين من الهجرة ، وفاضَتْ روحه الطاهرة المُطهَّرة مع غروب يوم السبت التاسع عشر من رمضان .

وهكذا ، آب المسافر إلى وطنه . . وعاد إلى منزله . !

ورحل « ابن أبى طالب » عن الدنيا . . لكنّ حياته والأيام التى عاشها على الأرض تحولت إلى شمس أخذت مكانها العالى فى حياة البشرية وتاريخها ، وراحت تجذب إلى مدارها قِيَمَ الحق ، والبطولة ، والإيمان ، والخير والشرف .

وهكذا رحل الإمام ، وما رَحَل . .

وظَعَن ، وما ظعَن . .

فهو الظَّاعن الحاضر . .

وهو الراحل المُقيم . .

لقد فتح لذكره ، ولذكراه أبواب الخلود حينما ترك لذوى الدنيا دنياهم ، واختار الله ورسوله ، والدار الآخرة . .

ولقد احتوَشتْه العواصف ، والأعاصير ، لكى تُزيغه فى ظلامها عن الطريق . . أو تُفقده بعض رشده ، أو تشغَله عن غاياته ومبادئه . . فما زاغ عن الطريق . . ولا فقد الرُّشد . . ولا سَئم صحبة مبادئه . .وحين أدركه الموت وجده عملاقاً يحمل رايتَه . . ! !

وهذا الطراز النادر ، من البشرية ، تمنحه المقادير الخلود ، فلا تسلمه للنسيان ولا للعدم ، لأنه يُشكل للإنسانية ضميرَها ، ونهاها .

وإن سيرة « ابن أبى طالب » لناهضَةٌ فى مجال خلودها العظيم ، تلقى على الجنس البشرى فى كل أزمانه وبُلدانه ، نبأ الولاء العجيب للحق .

ولاء الطفل ، وولاء الشاب ، وولاء الشيخ . .

ولاء المقاتل ، وولاء الناسِك . .

ولاء المواطن ، وولاء الحاكم . .

ولاء ما تجد بينه فى شتَّى مراحل العمر ، وتباين الأوضاع مِنْ تفَاوُت .

ذلك أنه ولاءٌ مطبوع ، لا ولاء مصنوع .

ولاءُ الفطرة ، لا ولاء الاحتراف .

ولاء اليقين ، لا ولاء المنفعة .

* * *

وإذا كان الولاء للحق يتمثل أوَّل ما يتمثل فى قَهر الدنيا . والتفوق على إغرائها وفُتونها ، فإن « ابن عم الرسول » وتلميذه العظيم ، قد بلغ فى ذلك المدى ، وجاوز المستطاع ! !

ها هو ذا ، يخرج إلى سوق الكوفة ، وهو خليفة المسلمين وأمير المؤمنين ، حاملاً أحد أسيافه الأثيرة لديه ، الحبيبة إليه عارضاً إياه للبيع وقائلاً :

[مَن يشترى سيفى هذا . ؟ فو اللهِ لو
كان معى ثمن إزار ما بعتُه] ! !

لماذا هذه الفاقة . وبيت المال يستقبل كل يوم من أقطار الإسلام مالاً غدَقاً . . ومن حقه كأمير للمؤمنين أن يأخذ منه كفايته . . ؟ ؟

لماذا يُصر على أن يطحن بنفسه دقيقه ؟ ويُرقّع مدرعته حتى لا يبقى فيها مكان لرقاع جديدة . . ؟ !

لماذا لا يأكل الخبز إلا قديداً مخلوطاً بنخالته ؟ ويهرب من قصر الإمارة بالكوفة إلى كوخ من طين . . ! !

نقول لماذا . . ؟

لأن الولاء للحق ، والزّهوَ بالدنيا لا يجتمعان .

ولقد تعلَّم ذلك من قدوة سلفَت ، طالما كان يلهج بها ذاكراً ، ومُذكِّراً . .

تلك القدوة التى لم تَغِب عن خاطره لحظة من نهار والتى عبرّ عنها فقال :

[فى رسول الله صلى الله عليه وسلم
إذْ قُبضَت عنه أطرافها ، ووطِّئت
لغيره أكنافها . .
« وفى موسى كليم الله ، إذ يقول :
ربِّ إنِّى لما أنزلتَ إلىَّ من خيرٍ فقيرٍ ،
ووالله ما سأله إلا خبزاً يأكله .
« وفى المسيح عيسى بن مريم ، الذى
كان يلبس الخَشن . ويأكل الجَشب
دابَّته رجلاه ، وخادمه يداه] . . ! !

تلك هى المنازل العُلى التى يُحلِّق عندها البطل الزاهد الأوَّاب وهو لهذا لا يعدل شيئاً بِجَشِب الطعام وخَشِن الثياب . ! !

لقد كانت هوايته الكبرى ، إهانة الدنيا ، وإذلال مغرياتها الماثلة بأن يرفع فى وجهها يداً لا تهتز ولا تختلج ، تقول لتلك المغريات : لا . . ! !

فلما وَلِى أمر المسلمين ، وصار لهم خليفة وأميراً ، تحوَّلت الهواية إلى واجب . . !

أجل – آنئذ لم يعد نبذ الدنيا وإذلال سلطانها وإغرائها مجرد هواية

لبطولته ، أو رياضة لروحه . بل صارت واجباً تفرضه مسئوليات الحكم ، وتبعات القُدوة . .

وآنئذ سمعناه يقول :

[أأقنع من نفسى بأن يُقال أمير المؤمنين ، ثم لا أشارك المؤمنين فى مكاره الزمان . . ؟ !

« والله لو شئت لكان لى من صَفو هذا العسل ، ولُباب هذا البُر ، ومناعم هذه الثياب ولكن ، هيهات أن يغلبنى الهوى ، فأبيت مِبطاناً وحولى بطون غَرْثى وأكبادٌ حَرَّى] . . ! !

* * *

هو إذن مُقيم لم يرحل . .

يُعلِّم الناس فى كل جيل وعصر ، أن الولاء للحق أثمن تكاليف الإنسان . .

ويعلم الحكام فى كل جيل وعصر ، أن الولاء للحق يعنى رفض إغراء الدنيا . ورفضَ غرور السلطان . .

وهو مقيم لم يرحل . .

يجد عصرنا هذا فى نهجه وحكمه أستاذاً ومعلماً وهادياً .

فاليوم ، حيث تعبئ الحضارة كل قواها لمحاربة الفقر ، وإرباء الكفاية ، وتوزيع العدل ، نجد أمير المؤمنين علياً . . يدرك من قرابة

ألف وأربعمائة عام « بُؤس الفقر » و « وظيفة المال » إدراك الحاكم المسئول ، لا إدراك الواعظ المتَمنى .

انظروا . .

ها هو ذا « ناسِكٌ » لم يمنعه نُسُكُه ، وزهده عن أن يعرف ضراوة الفقر وبؤسه وعداءه لتقدم الروح والضمير فيقول قولته الباهرة :

[لو كان الفقر رجلاً لقتلتُه] . ! !

وها هو ذا يبدأ الساعات الأولى من حكمه وخلافته بوقف تضخم الثروات التى سببها التمييز فى الأنصبة والعطاء بين الذين أسلموا قبل الفتح ، والذين أسلموا بعده . . فيلتزم منهج التسوية فى العطاء .

وفى حدود قدرة « بيت المال » يأخذ كلُّ حاجته ولا يزيد . .

وإنه ليفحم المعارضين لمنهجه بكلمات قِصار لكنها كِبار . إذ يقول . .

[لو كان المال مالى ، لسوَّيت بينهم ،
فكيف والمال مال الله ، وهؤلاء ،
عباده . . ؟]

إن « وظيفة المال » عنده ، تتمثل فى سد حاجات الشعب فرداً فرداً . .

وهو – أى المال – ليس « مثوبة » على دين ، ولا تكريماً لمركز ، بل ولا ثمناً لجُهد . .

إنه قيام بضرورات العيس ، وسدٌّ لحاجات الناس ، لا أكثر من هذا ، ولا أقلّ

وهو بهذه المثابة ، لا يصلح قط أن يكون « حِكراً » ولا أن يكون

« دُولة » بين أيدى قِلَّة مُثرية .

إن « تحديد إقامة المال » فى بضْع أيْدٍ ، أو بضعة بيوت ، هدْر لوظيفته وإلغاء لدوره الصحيح فى فقه الإمام ، الذى هو فِقْه الإسلام . .

من أجل هذا قال كلمات راشدة صاغ بها مبدأ من أعظم مبادئ حكمه وحكومته .

[إن الله فرضَ فى أموال الأغنيـــاء
أقوات الفقراء . .
« فما جاع فقير ، إلا بتخمة غَنى] . .

من العسير أن نجد عبارة تحدثنا عن وظيفة المال ويجتمع فيها المنطق العلمى ، والأَلَق الإنسانى ، على هذا النسق الفريد والرشيد !

[إن الله فرضَ فى أموال الأغنياء
أقوات الفقراء ، فما جاع فقير إلا
بتخمة غنى] .

ألا وإن « الإمام » بهذا المبدأ ، لا ينفى عن المال نزوة الاحتكار فحسب . بل ينفى عنه كذلك نزوة السَّرف فى إنفاقه والجموح فى طلب المناعم به .

فجوع الفقير ناشئ عن تخمة الغنى . .

والجوع والتخمة — كلاهما مظهر لخلَلٍ فى وظيفة المال وعدالة التوزيع .

فحين تأخذ وظيفة المال دورها الصحيح فى تغطية المعايش وسد الحاجات بغير سرف أو ترف . . فآنئذ لا توجد « التخمة » التى

تخلق الجوع ، ولا يوجد « الجوع » الذى يحقد على التخمة .

وعبارته الرشيدة هذه :

[إن الله فرض فى أموال الأغنياء
أقوات الفقراء] .

تعطينا دلالتُها الرائعة حكماً فقهيًّا باهراً ، هو أن أموال الأغنياء ليست حقاً خالصاً لهم ما دام فى مجتمعهم فقراء . . بل هى حق لهم وللفقراء معاً . . هى حق للفقراء الذين خلَت منه أيديهم ، بقدر ما هى حق للأغنياء الذين تمتلئ به أيديهم ! !

ولقد كان « الإمام » رضى الله عنه يضع مبدأه هذا كما يضع كل مبادئه موضع التنفيذ السَّديد ، لا يصرفه عن ذلك تلك الفتن المجنونة حوله ، ولا الحرب المتسعِّرة ضده .

تُرى هل كان لسياسته هذه دور فى تألُّب الأحقاد عليه وانفضاض الذين كانوا أنصاره بالأمس من حوله ؟ !

هل لعبت مخاوف المسلمين الذين أثروْا ثراءً كبيراً ، والذين كانوا فى طريقهم إلى الثراء دوراً غير منظور فى محاربة الخليفة الذى رفع هذا الشعار ، وهذا المبدأ :

[إن الله فرض فى أموال الأغنياء
أقوات الفقراء] . ؟

* * *

على أية حال ، فقد رحل عن الدنيا – الشكل الخارجى – للبطل : أما موضوعه الحىّ ومضمونه النقىّ ، فقد بقيا غذاء للحقيقة وريًّا .

وسيظل « الإمام » حيًّا فى جميع القيم وفى كل الحقائق التى عاش يناضل دونها ، ومات حاملاً رايتها .

سيظل حياً وماثلاً فى فضائله وعظائمه التى صاغ منها حياة امتدت إلى الثالثة والستين ، والتى أجاد وصفها ضِرار بن ضمرة الكنانى .

فقال واصِفاً الإمام :

« كان بعيد المدى ، شديد القُوى . .
يقول فصلاً ، ويحكم عدلاً . .
يتفجَّر العلم من جوانبه ، وتنطلق الحكمة من لسانه . .
يستوحِش من الدنيا وزهرتها ،
ويأنس بالليل ووحشته . .
« كان غزير الدمعة ، طويل الفكرة ،
يقلب كفيه ويخاطب نفسه .
« يَعجبه من اللباس ما خشُن ، ومن الطعام ما جَشُب . .
« وكان فينا كأحدنا — يجيبنا إذا سألناه ، ويبتدئنا إذا أتيناه ، ويأتينا إذا دعوناه .
« وكنا والله مع قُربه منا لا نكاد نكلمه لهيبته ، ولا نبتدئه لعظمته .
« وكان إذا تبسَّم فعَن مثل اللؤلؤ

المنظوم . . يعظم أهل الدين ، ويقرب المساكين .

« لا يطمع القوى فى باطله ، ولا ييأس الضعيف من عدله .

« وأشهد لقد رأيته فى بعض مواقفه ، وقد أرخى الليل سدوله ، وغارت نجومه وقد مثل فى محرابه ، قابضاً على لحيته ، يتململ تململ السليم ويبكى بكاء الحزين .

« فكأنى أسمعه وهو يقول : يادنيا ، يا دنيا ، إلىَّ تعرّضت ، أم إلىّ تشوّقت ؟ هيهات هيهات ، غُرّى غيرى .

« قد أَبَنْتُكَ ثلاثاً ، لا رَجعة فيها ! !

« فعمرك قصير . . وعيشك حقير . . وخطرك كبير . .

« آه من قِلّة الزاد . .

« وبُعد السفر . .

« ووحشةِ الطريق . . » ! !

* * *

لقد كان حظ الإمام مع الناس عاثراً . .

ولكن حظوظه مع نفسه فى طهرها وتُقاها ، كانت رابيَة ووافية . .
فبغير عَونٍ من تأييد يبذلُه مؤيدون وأصدقاء . .
وبغير جزعٍ أمام المؤامرات الضارية ، يثيرها فى وجهه أعداء ، تِلْوَ أعداء . . وقف « الإمام علىّ » يبنى وحده — بإيمانه الفرد ، وبساعده الأشَدّ ، حياةً سامقة تبقى على مَرِّ الزمان « مناراً » لذوى الرُّشد والنُّهىَ . .

* * *

ولئن كان لم ينصفه الذين غلَوْا فى حَرْبه . .
ولم ينصفه الذين غلَوا فى حُبِّه . .
فقد أنصفته عظمته الفريدة ، إذ فرضَت على الأعداء جلالَها . .
وعلى الأصدقاء استِغناءَها . .
وسارت على وجه الزمان طاهرة ، ناضرة ، ظافرة . .
وَتلكُمْ هى العظمَة حقًّا . . ! !

كتب للمؤلف

١ – من هنا .. نبدأ
٢ – مواطنون .. لا رعايا
٣ – الديمقراطية ، أبداً
٤ – الدين للشعب
٥ – هذا .. أو الطوفان
٦ – لكى لا تحرثوا فى البحر
٧ – لله ، والحرية
٨ – معاً على الطريق – محمد والمسيح
٩ – إنه الإنسان
١٠ – أفكار فى القمة
١١ – نحن البشر
١٢ – إنسانيات محمد
١٣ – الوصايا العشر
١٤ – بين يدى عمر
١٥ – فى البدء كان الكلمة
١٦ – كما تحدث القرآن
١٧ – وجاء أبو بكر
١٨ – مع الضمير الإنسانى فى مسيره ومصيره
١٩ – كما تحدث الرسول
٢٠ – أزمة الحرية فى عالمنا
٢١ – رجال حول الرسول
٢٢ – فى رحاب على
٢٣ – وداعاً .. عثمان
٢٤ – أبناء الرسول فى كربلاء
٢٥ – معجزة الإسلام: عمر بن عبد العزيز
٢٦ – عشرة أيام فى حياة الرسول
٢٧ – والموعد الله